مجلة أبوليوس
المجلد 09 العدد 01– جانفي 2022
الصفحات: 46- 62

الأنا الجلدي: أرجوحة الوجود المتذاوت

The Skin Ego: The Swing of Intersubjetive Existence

دليلة زغودي*
المركز الجامعي مغنية (الجزائر)
Daliazegh1982@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/07/29 تاريخ القبول:2021/11/24 تاريخ النشر:2022/01/31

ملخص البحث:

ينطلق تأسيس الوجود النّرجسي للذّات من الجلد، وفيه تختزن تجاربها وتطوّر طاقاتها النّفسية وتستثمرها، وهو أيضا معبرها نحو الخارج، وأداتها التّواصلية الأولى مع الغير؛ فمن اللّمسة انبثق الوعي بالوجود الخّاص، ومنها بنت الذات تصوّرها عن نفسها كأَنَا؛ وفيها اشتبكت الخبرات والحدود، فشكّلت شاشة للتّصادي بين الذّاتي والغيريّ، وواجهة ترشح بالخاصّ وغير الخاص، أثرت مسرح الإهاب وحمّلته عبء الصدارة وكلفة الاجتراح الأول، و علّقت، على صفحته، تقاطع الأكوان المتباينة وافتراقها وأودعته رصيدا دلاليا ثقيلا عرّضه لتناهب التّخصّصات.

سيحاول هذا البحث أن يقف على مفهوم "الأنا الجلديّ" (moi peau) المتبلور في نظريات التّحليل النّفسي، الّتي اشتغلت على "مجازات الغلاف" وعلى "التّمفصلات بين حاو ومحتوى": والمنحدرة من التّيار التّحليلي النّفسي الأنجلوسكسوني والفرنسي، وتشمل أسماء كل من "ديدي أونزيو" (Didier Anzieu) و"جون لابلانش" (Jean Laplanche) و"إيستر بيك" (Esther Bick) و" د.و. وينكوت" (D.W. Winnicott) وويلفريد بيون (Wilfred Bion). وغيرهم، واتخاذ هذا المفهوم كوّة للإطلال على مختلف مظاهر التّمثل المعرفي التي تستثمر الأديم الظاهر في بناء الأنساق الثقافية، ورسم المدارات المعرفية، ونقش الآثار الدّالة.

الكلمات المفتاحية: الأنا الجلدي- الحاويات النّفسية- الغلاف- التّماس - الحدود – السّجل.

Abstract:

The establishment of the narcissistic existence of the self starts from the skin. In which the self stores its experiences, develops and exploits its psychological energies. Besides, it is also its passage to the outside and its first communicative tool with others. From the touch arose awareness of the private existence and from it the self-constructed portrayal of itself as “I”. Inside, experiences and conflicting boundaries, forming a screen to confront the Self and the Other, and an interface that filtered the intimate and the unfamiliar. It favoured the scene of offerings and brought it higher at the expense of the first scratch, and hang on its wall the confluence of the disparate universes, leaving a significant semantic asset that exposed it to a range of fields. This paper tries to depict the concept of "the skin-ego" (moi-peau) formed in the theories of psychological analysis, that operated on the "cover metaphors" and "the separation between container and content." Derived from the current Anglo-Saxon and French psychoanalyses, it included the names of "Didier Anzieu", "Jean Laplanche", "Esther Bick" and "D.W. Winnicott " Wilfred. Bion ... and others. This concept was taken as a niche to overlook the various aspects of cognitive signs that invest the appearing cultural systems, identifying cognitive orbits, and designing significant effects.

Keywords: The Skin Ego - psychic containers - cover - seek - limit - record.

* المؤلّف المراسل

مقدمة:

برز الاهتمام بالجلد وصيّاغة مفهوم نفسيّ عنه تحت مسمّى "الأنا الجلدي"، في غمرة التّحول الكبير لعلم النّفس من الانشغال بالمحتويات النّفسية(les contenus psychiques) إلى العناية بالحاويات النّفسية (les contenants psychiques)، وملاحقة مظاهرها وآثارها، وفي ظل الإقرار بأن كل وظيفة نفسية تتكئ على وظيفة جسديّة[1]، فالهويّة ترتكز على الجسد، ويرتهن تكوّن الأنا -كوحدة نفسيّة- إلى تكوين الوحدة الجسديّة، وبتوافر هاتين الوحدتين يتأهّل الفرد لتكوين صورة عن نفسه عبر الآخر. فالأنا هو قبل كلّ شيء أنا جسدي، ينتج عن استدخال الإحساسات المنبعثة من سطح الجسم.[2]

وهي تحوّلات ابتدرتها مباحث فرويد حول البنية النّفسية الحدودية التي تدرأ عن الجهاز النّفسي ما يفيض عن حاجته من الاستثارات الخارجية، وتمنعها من التسرّب إلى الدّاخل، وما انجرّت عنه من مفهوم "حواجز الاتّصال" (barrières de contact)، وأفضت إليه أخيرا من بلورة مفهوم الغلاف[3]. إثر طرح مفهوم الأنا وغشائه المزدوج. إضافة إلى ما استتبعه من جهود عمدت إلى تناول "حدود الأنا" (frontières du moi).

تطوّر المنحى مع أونزيو ووصل إلى مفهوم "الغلاف النّفسي" الذي يبدو كحدّ أو غشاء نفسيّ وحسّي يضمن هويّة الفرد ويسمح بالتّبادلات مع المواضيع، ويكفل له تشكيل صورة عن ذاته عبر الآخر[4]، مؤمّنا له تحقيق التّواصل معه، إنّه واجهة بينيّة تعزل وتصل في آن[5]. فهو ذو تركيبة مزدوجة؛ تتّجه إحداهما صوب العالم الخارجي لتصدّ الإثارات البرّانية، فيما تنكفئ الأخرى على العالم الدّاخلي لتسجّل آثار المعيش وتواجه مثيرات اللّاشعور. إن إمكانية تشكيل المحتويات رهينة بوجود هذا الغلاف أو هذا الحاوي[6].

1. الجلد:

حظي الجلد في التّحليل النّفسي بعناية كبيرة؛ لأنّه من يقدّم للجهاز النّفسي جملة التّمثّلات المؤسّسة للأنا ووظائفه الأساسيّة. وهو الحدّ البينيّ الفاصل بين الدّاخل والخارج والواصل بينهما أيضا.

تعكس التّركيبة المعقّدة للجلد على النّطاق العضوي- وهي تجمع بين التّشريحي والفيزيولوجي والثّقافي- التّركيب المعقّد للأنا على الصّعيد النّفسي؛ فلا يمكن اختزال الجلد وحصره في نطاق عضو واحد مثل باقي أعضاء الجسد، لأنّه يتّعدد ويتنوّع، فيما هو يزاول وظيفته الاشتمالية والاحتوائية ويغلّف أعضاء الجسد بالكامل[7]؛ وربّما لهذه المزيّة لا يمكن العيش بدون وجود غالبية الجلد على الجسد، فيما يمكن الحفاظ على الحياة في غيّاب عضو العين أو الأذن أو الأنف ..مثلا. وبفضلها أيضا شاعت عبارات من قبيل؛ "ينفذ بجلده" و" إنّ المرء يحسّ بالخير (أو الشر) في جلده "وصار الجلد يرمز للكائن البشري كلّه[8] ، مستدعيا، من الأصول، العروة الوثقى بين أديم آدم وأديم الأرض.

وفي حالات كثيرة يبوء الجلد وحده بمهمّة وصل الإنسان بالعالم، ورأب الصّدع الّذي قد يخلّفه غيّاب حواس الانفتاح على الخارج في حالات الإعاقة المزدوجة؛ السّمعية- البصريّة؛ ففي وضعي "هيلين كيلر" (1880-1968) و"لورا بريدغمان" (1829-1889) المقطوعتين عن العالم، بسبب العمى والصّمم، كان اللّمس سبيلهما الوحيد للإحساس بالحضور الذّاتي والانخراط في العالم، وأبجديتهما الفريدة لجوب خرائطه بعد أن صارت لهما الأيادي عيونا تريان بها وآذانا تصيخان بها لصخب العالم.

والجلد، وخلافا لبقيّة أعضاء الجسد، الوحيد الّذي لا يمكنه الانغلاق في وجه غزو العلامات؛ إنّه جاهز دوما لتلقّي آثارها و تسجيلاتها على صفحة نسيجه النّفوذية، لا يحوز جفنا يغلقه ولا تجويفا يسعه سدّه، ولا يملك أن ينكمش بين فكّين، أو يتحصّن داخلهما من المثيرات الخارجيّة. يظلّ واجهة مفتوحة أبدا على الخارج، وشاشة تنقل الحالة الدّاخلية وتعرّضها للمشاهدة دون مواربة، إنه مجلى لحالتنا الصّحية في العافية والمرض، ومرآة لنفوسنا.

ولا يتأتّى للجلد إلا أن يسوّق دلائل العافية ويمارس الإغواء، ويكون رسول العالم الخارجي وحامل بريده إلى الدّماغ. منه يَقْدَحُ الألم شرارته، وتتّخذه اللّذة منفذا للّتفتح والتّعريش، ناهيك عن وقوعه في نقطة التّقاطع بين ما هو نفسي واجتماعي وثقافي وأنثربولوجي وحتى ديني، وتموضعه موضوع عناية مشترك بين العديد من العلوم الإنسانيّة. وليس غريبا أن تتزاحم عليه التّخصصات، ويكون محطّ اهتمام وموضوع اشتغال للكثير منها؛ فتتنازعه مجالات الحلاقة والتّجميل وصناعة العطور، ويشتغل عليه المعالجون الطّبيعيون، وتدرجه الشّرطة العلميّة والقضائية في اهتماماتها (المعنية بالبصمة الرّقمية) [9]...

2. الأنا الجلديّ :

يشكّل مفهوم "الأنا الجلديّ" عماد نظرية "ديدي أنزيو" النّفسانية، بعد أن ظهر في اصطلاحيته للمرّة الأولى سنة 1974، عنوانا لمقال نشر "بالمجلة الجديدة للتّحليل النفسي"، اتّخذه بعدها عنوانا لكتاب كامل سنة 1985، ولم يكن له علم النّفس مصدرا وحيدا في استلهام المفهوم وتطويره، بل أفاد أونزيو، في صياغته؛ من علوم إنسانية وميادين بحث شتّى أبرزها:

الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا بالإضافة إلى الفينومينولوجيا..

يدلّ الأنا الجلدي على" بنية مضمرة منذ الولادة تتحقّق من خلال العلاقة بين الرّضيع والمحيط الأولي"[10]، إنه مآل يفضي إليه تطوّر الوظيفة النّفسية للجلد، ينطلق من أديم الجسد وسطحه، ويبوء فيه الاستدخال بدور رئيس، يكون فيه حصيلة استبطان اللّمسات الأمومية المبكّرة لجلد الطفل (ابتداء من الملامسة الفموية أولّا بالتقام الثّدي- لحظة الاندماج المثلى للحسّ بالاجتياف- وصولا إلى مختلف الملامسات التي تطال سطح الجلد: من مداعبات، ولمسات تنظيف وترطيب وتربيت.. وغيرها من صنوف الاحتكاك اللّمسي).

تمنح هذه البنية المجازية الطّفل القدرة على تشكيل صورة نفسيّة عن جسده، وابتناء تصوّره عن نفسه كأَنَا انطلاقا من تجاربه الجسدية؛ فما الصّورة الجسدية سوى التّصوير الذي يستخدمه أنا الطفل خلال المراحل البدائيّة كي يظهر هو في حد ذاته كأنا انطلاقا من سطح الجلد[11].

إنّ الأنا الجلدي غلاف يحفّ نرجسيّة الأنا، ويرسّم تخومها الخاصّة ويبني قواعدها، داعما تفردها، وضامنا وحدتها وتماسكها. يحتوي أعضاء الجسد المختلفة ويلفّها، ويجمع شملها بغلاف حاو يصونها من التّأثيرات الخارجية المرفوضة ويؤكّد تفرّدها وثباتها، ويسدّ السّبيل في وجه متغيّر الاختراق (pénétration)؛ بحدوده النّفوذية المهدّدة، فيما هو يسوِّر الأنا، ويصون وحدتها من التّبدد والتّشرذم. إنّ هذا الحدّ الجلدي يضمّ بين الصّلابة والهشاشة[12] دون تعارض، ويجمع بين النّفوذية والانغلاق دون تطرّف.

أضاف أونزيو- إلى النّزوات الأساسية عند فرويد- الفموية والشّرجية والقضيبية- "نزوة التّعلق"

(pulsion d'attachement)- المستلهمة من نظرية بولبي (bowlby)- وهي تقوم على دراسة كيفية تكوين العلاقات الأولى، ودورها الحاسم في تكوين شخصية الطّفل عبر انعكاسات نماذجها عليه[13]، و ترى في قرب الطّفل الجسديّ من الأمّ، ضرورة لتنمية الشّعور بالأمان لديه، وتربيّة مقدرته على تطوير طاقاته النّفسية .فلا غنى للجهاز النّفسي -حسب فرويد- عن تدخّل الأمّ باعتبارها مصدر الحياة النّفسية[14].

ويحدد أونزيو للغلاف النفسي ثلاث خصائص عامة: هي الانتماء (appartenance)، والاتصال (connexité) والدمج (compacité).

1.2.الوظائف: ينهض الأنا الجلديّ- في تصور أونزيو- بأداء تسع وظائف نفسيّة، ارتسمت معالمها بالتّدريج على طول مسار دراساته النّفسية حول الموضوع، والتي نشرت فيما بين 1974 و1985. ثمانٌ منها تخدم نزوة التعلّق والنّزوة اللّيبيدية أو الإيروس (Eros)، وتوفرها البيئة الأمومية الحميمة، فيما تخدم الأخيرة نزوة الموت أو التاناطوس (thanatos):

1. وظيفة الصّيانة والحفاظ على النّفس (maintenance): إن التّوفر على غلاف نفسيّ جيّد، يشتغل في وحدة وتماسك ومتانة، والنجاح في تكوين حدّ وسط يقبع فيما بين سهولة الاختراق والإفراط في الصلابة، قمين بزرع الشعور بالأمان والحماية. وتنشأ هذه الوظيفة من استدخال ما يدعوه د.و. وينكوت (D.W. Winnicott) بالهولدينغ holding أي؛ حركات عناية الأمّ وطريقة حفاظها على جسم رضيعها وكيفية حمله بين ذراعيها؛ بما يضمن الحفاظ عليه، ويمنحه الشّعور بالحماية[15].

وينجرّ اختلال هذه الوظيفة أو انعدامها -بسبب إهمال الأم أو عجزها عن أداء دورها في شمل طفلها بالرّعاية الجسدية – عن نشوء أعراض اختلالات نفسية عند الطّفل لاحقا؛ يبرزها النفور من التّماس مع الآخرين، وإهمال نظافة الجسم والتّذمر من صنوف العناية بالمظهر.[16]

2. وظيفة الاحتواء (contenance) يسعى الأنا الجلدي إلى تغليف الجهاز النّفسي بالكامل، تماما كما يغلّف الجلد الجسم، مستدعيا صورة الكيس الحاوي. تنشأ هذه الوظيفة النّفسية ممّا يدعوه د.و. وينكوت بالهاندلينغ الأمومي (handling)؛ حيث تعمل العناية بجسد الرّضيع وتلبية حاجاته من قبل الأمّ- بالإضافة إلى لعب الجسدين؛ الطّفولي والأموميّ، مع بعضهما البعض، ناهيك عمّا يكفله الثّدي الجيّد من خاصيّة الاحتواء- على التصدّي للارتدادات العدوانية التّهديمية لأشلاء الأنا المشَتَّتَة، ومدّها بإمكانيات التّشكيل والرّبط والإدماج[17].

وتتفتّح عبر استجابات الأمّ الإيمائية والصوتية لأحاسيس الرضيع وانفعالاته في شكل أصداء؛ تهيّء الطّفل، تدريجيا، وتحضّره للاستقلال بأحاسيسه وانفعالاته؛ في مأمن من أيّ وقع تدميري[18].

3. وظيفة صدّ الإثارات (- fonction de pare excitation): هي وظيفة فرويدية المنابع، ظهرت في كتاب "الموجز في التحليل النفسي" 1895، بهذه التّسمية[19]؛ وتنصّ على أن الأنا الجلدي، وعلى غرار الجلد الخارجي، يستقبل الإثارات الخارجية [20] كقشرة جلد سطحيّة (البشرة) تدرأ الأخطار والاعتداءات الخارجية عن طبقة الجلد الحسّاسة تحتها (أين توجد والأوعية الدّموية...)

4. وظيفة تفريد الذّات (fonction d'individualisation du soi): الجلد قلعة فرديتنا، والأنا الجلديّ هو من يحقّق للذّات تفرّدها، ويمنحها الشّعور بأنّها كائن موحّد، فالجلد يؤمّن عبر لونه ونوعية نسيجه، ومن خلال رائحته الخاصّة،

الاختلافات الفردية.[21] وهي ميزة تُستثمَر على الصعيد الفرديّ والاجتماعيّ معا، وتؤكّد ذاته كفرد مستقلّ بجلده، يمتلك هويّة خاصّة ومستقلّة؛ فـ"نحن لا نكتسب هوية منذ الابتداء، بل الهوية صيرورة وعي مستمرّ بالجسم الخاصّ وبالآليات النّفسية والانفعالية المتّصلة به"[22].

5. وظيفة الرّبط بين الحواسّ أو البيحواسية (d'intersensorialité): تنطوي الفيزيولوجيا السّطحية للجلد على جيوب وتجاويف تتّخذها الحواسّ أعضاء لها، وبالموازاة معه، يمثّل الأنا الجلدي سطحا نفسيّا يَجْدِل الحواسّ المتباينة، ويشدّ بعضها إلى بعض، مختصّاً، دونها، بوضعية الخلفيّة الأصليّة، ما يجعلها تبدو، في كنفه، كأشكال أو صور على بساط لمسيّ، ويفضي إلى تأسيس "حسّ مشترك" (sens commun) ينهض فيه "اللّمس بالمرجعية الأساس ويمثُل كقعر لظهور التّرابطات الحسيّة".[23] وإذا كان لكلّ حاسّة حسّ خاص، أو لغة خاصة بها، ممّا يدخل اللّون مثلا في اختصاص البصر، ويردّ الصّوت إلى السّمع، ويلحق النّكهة بالذّوق، ويقصر الرّائحة على الشمّ، فإنّ موضوع اللّمس، على خلافها، متعدّد الصّفات.[24]

يتسرّب اللّمس إلى كلّ الحوّاس ويسري فيها بقدر، ما يجعلها تبدو كما لو كانت كلّها لمسا بطريقة ما؛ إذ يحصل الذّوق من ملامسة الطّعام لمناطق التّذوق في اللّسان وسطح الأنف الدّاخلي، أما الشّم فينجم عن تماسّ جزيئات الرّائحة وجلد الظّهارة الشّمية في مؤخّرة الأنف، فيما تنتج الرّؤية عن احتكاك الأشعّة المنعكسة على الأجسام بقرنية العين، و يتأتّى السّمع من ملامسة الذّبذبات الصّوتية لطبلة الأذن وهزّها. وإذا كان للّمس أن يوجد بدون باقي الحواس، فإنّ هذه الأخيرة لا يسعها أن توجد من دونه[25]. فهو من يلقّن باقي الحواسّ درس الحساسية؛ إذ يؤسّس لمبدأ الحسّ بالوجود (cœnesthésie)، ويوطِّئ السّبيل لدخول لعبة التّرميز.

6. وظيفة دعم واحتواء الإثارات الجنسية soutien d'excitations sexuelles: يشخّص الأنا الجلدي سطحاً يلتقط الإثارة الجنسية ويحتويها بفعل الاستثمار اللّيبيدي المبكّر لجلد الطّفل من قبل الأمّ بأثر الاحتكاك الجلدي أثناء الرّضاعة، أو من خلال ضروب الرّعاية وصنوف المداعبات. فتظهر الإثارة الجنسية الذّاتية (auto- érotisme) وتُموضِع متع الجلد كخلفية اعتيادية للمتع الجنسية وتتحدّد [نسبيا] في مناطق شبق بعينها أو "مناطق شهوية" - كما يدعوها فرويد.[26] تسهم هذه الوظيفة أيضا في الّتعرف على الاختلافات الجنسية، واضعة اليد على متطلّبات التّكامل الجنسيّ بين الصّنفين. كما يصبح الأنا الجلديّ غلافا للإثارة الجنسية الكليّة المتفجّرة في اتّصال الجلد بالجلد عناقا وتقبيلا...

يفضي عدم احتواء هذه الإثارات الجنسية، كما ينبغي، بالطّفل، عندما يرشد، إلى افتقاد الشّعور الكافي بالأمان للدّخول في علاقة جنسية كاملة تسفر عن رضا متبادل بين الشّريكين[27].

7. وظيفة إعادة الشحن الليبيدي (fonction de recharge libidinales): تصون توتّر الطاقة الداخلي وتوزيعه غير العادل بين الأنظمة النّفسية الجزئية، وتخفّض الضّغط إلى ما فوق الصّفر للوصول إلى حالة الانطفاء التام (أو ما يدعى في التراث البوذي بالنيرفانا)[28].

8. وظيفة تسجيل الآثار الحسيّة اللّمسية (fonction d'inscription des traces sensuelles tactiles): إنّ "الجسد معروض للقراءة تماما كرواية: يتمتّع بالمقدرة على تخزين الأحداث والذّكريات الأكثر كثافة بواسطة الآثار المدوّنة عليه"[29]، يوفّر الأنا الجلديّ معلومات مباشرة عن العالم الخارجي بفضل

أعضاء الحسّ اللّمسي الّتي يحتوي عليها، ويساهم المحيط الأمومي في دعم وتقويّة هذه الوظيفة؛ بفضل دوره في عرض الموضوع أمام الطّفل.

يحتفظ الأنا الجلدي بأثر الأحداث الدّاخلية والخارجيّة، وتبدو حاله كحال المخطوطة الأصلية التي تحفظ، على طريقة الطّرس، مسوّدات وخربشات كتابة أصلية سابقة عن الكلام، لفّقت من علامات الجلد[30].

قد يغادر هذا الوصف حدود المجاز ليصبح واقعا؛ حينما يضعنا الجلد المرقوم والمخطوط، وفنون التّجليد والتّغليف على حافّة فيزيولوجية أخرى تكتنفها الدّهشة وترين عليها حسيّة الأغشية الحيّة؛ يتبادل فيها الجلد والكتابة الأدوار؛ وعوضا عن جلد يرتدي اللّغة ويتلحّف بالكتابة، نجد اللّغة تتخذ الجلد الآدمي لباسا تتلفّف به؛ في ظواهر استثنائية مريعة يستعمل فيها جلد الإنسان لتغليف الكتب[31]، يتفاعل النّسيج الحيوي للبشرة مع النّسيج اللّغوي الرّمزي ويصير الجلد، فيها، حاويا بيولوجيا للّغة ضمن فنّ تجليد فرنسي المنشأ يدعى " bibliopégie anthropodermique " ظهر في القرن السّادس عشر، وصار بوسع الأشخاص ، في ظل توفره ، قهر الموت والانتصار للحياة بالبقاء إلى جوار عائلاتهم وأحبّائهم في شكل كتاب .

تتطور هذه الوظيفة وتتفعّل بدعم مزدوج: بيولوجي واجتماعي

-بيولوجي: حيث ينطبع أوّل رسم للواقع على البشرة .

-اجتماعي: إنّ عضوية الفرد في جماعة اجتماعية تلزمه بجملة من التّسجيلات السّطحية؛ من قبيل: الشّقوق، والثّقوب،والأوشام والتّلاوين والمساحيق، والتّسريحات... عدا عماّ يضاعفه من ألبسة وأزياء الانتماء.

وعلى النّقيض منه، نلفي الأنا الجلدي "الغربالي"، الذي تستشري الثقوب على صفحة غلافه فتتسرّب منها الذّكريات والأفكار، مخلّفة نزيفا يستحيل على صاحبه التّحكم به؛ ما يورثه خوفا وقلقا على داخل لايني يفرغ، وينذر بالخواء[32].

9. وظيفة التّهديم الذّاتي (fonction d'auto destruction): تصنّف هذه الوظيفة، بخلاف الوظائف السّابقة،في خانة النّشاط السّلبي الخادم للتناطوس ، وتعدّ وظيفة سامّة للأنا الجلديّ، ترتدّ على الذّات نفسيا. لا تحتاج النّزعة التّدميرية إلى تحفيز خارجي، بل تنشأ الهجمات اللّاواعية على الحاوي النّفسي، غالبا، بتأثير من ظواهر عضوية تلقائية، تتحالف فيها أجزاء الذّات مع وكلاء النّزوة التّدميرية المتجذّرة في الهو؛ وهي تزحف باتّجاه محيط الذّات وتتكيّس، منها، في الطّبقة السّطحية الّتي يشغلها الأنا الجلديّ، أين تعمل على تمزيق الامتداد وتدمير التّماسك، فتبدّل الوظائف بعكس الأهداف، وينقلب الجلد الوهمي، بعد أن كان غلافا يتلحّف به الأنا ويحتمي، إلى سترة مسمومة خانقة تكويه وتحرقه وتجعله يتآكل ويتساقط[33].

ما يوجد له مثيل في الحلّة المسمومة المهداة لامرئ القيس من ملك الرّوم ، وكانت السّبب في تخريب القدرة الحامية للدّرع الجلدي الواقي، تاركة جسده بلا حماية، وجعلت لحمه يتداعى ويتساقط تلقائيا[34]

إنّ الفرق بين عمل إيروس الّذي تسفر عنه الوظائف الثّمان الأولى، وبين عمل التّناطوس المنجلي عبر الوظيفة الأخيرة، هو فرق بين شغل موحِّد ورابط، وآخر مدمِّر ومشتِّت يفكّ الرّوابط ويحيل الحيّ إلى الحالة اللّاعضوية[35]، إنّه التّصالب بين عملية البناء/ وعملية الهدم (anabolisme/ catabolisme)[36].

2.2.أنواع الأغلفة النفسية: يتّخذ الأنا الجلدي مظاهر مختلفة ويلعب أدوارا كثيرة منها أنه :

✓ **غلاف صوتي (enveloppe sonore):** الجلد هو البساط التّأسيسي للّغة والموسيقى...فبالموازاة مع إقامة تخوم للأنا كواجهة بينية (interface) مزدوجة البعد، اتّكاء على الأحاسيس اللّمسية، يتمّ تأسيس الذّات كتجويف نفسيّ مزوّد بمخطّط وحدة وهوية – على إثر استدخال الكون الصوتي (إلى جانب الكونين؛ الذّوقي والشميّ) . تحضّر الحساسيات السمعية لبناء الذّات بعد أن تأخذ بالاعتبار البعد الفضائي والبعد الزّمني .[37] ويغدو الجلد مرآة صوتية أو جلدا سمعيّا نطقيا، ينهض بوظيفة اكتساب القدرة على التّدليل والتّرميز بفضل الآلة النّفسية .

✓ **غلاف حراري (enveloppe thermique):** يشهد غلاف الحرارة على أمن نرجسي، مستمدّ من الحرارة الفيزيائية للأم في الهاندلينغ، ويؤشّر على استثمار كاف لنزوة التّعلق يكفل الدخول في علاقة تبادل مع الآخر، تحترم فيها فردية الطّرفين وتصان استقلاليتهما، إنّه ما تعبّر عنه اللّغة عندما تستخدم تعبيرا من قبيل "الصلات الحارّة". يخطّط هذا الغلاف حدود إقليم هادئ مع نقاط حدودية تسمح بدخول المسافرين مأموني الجانب وخروجهم. وبالمقابل معه يرمي غلاف البرودة (**enveloppe de froid**) إلى إنشاء غلاف كتيم مسدود على نفسه، مختوم بنرجسية تنأى عن الآخر وتقصيه.[38]

✓ **غلاف شميّ (enveloppe olfactif):** يرتكز الأنا الجلدي ، في العموم، على غلاف ذي مصادر لمسيّة وصوتية بالأساس، ولكن هناك حالات يكون منها العماد شميّا.[39]

✓ **التباس الصفات الذوقية (la confusion des qualités gustatives):** تشكل الإدراكات الأوليّة من لمس وذوق وشمّ وسمع، قوام التّركيبة النّرجسية للذات، فيما تتّخذ التّركيبة الأوديبية طابعا بصريا، يعتمد على الهوامات المرئية. إنّ اجتياز المرحلة الأوديبية يستلزم العبور من اللّمسي والذّوقي والشّمي والتّنفسي ودمجها بإحكام للوصول إلى البصري. ونظرا لكون الغلاف النفسي يتأسّس على التّرابطات والصّلات ويعدّ الربّط والوصل بين المساحات النّفسية إحدى خصائصه الأساسية، فإن صعوبات إدماج وتحويط الغلاف اللّمسي مع الأغلفة الذّوقية والصّوتية والتّنفسية تفضي إلى تشويش الفكر المنطقي؛ ويمتدّ هذا التّشويش من الفكر الإدراكي الأولي إلى الفكر اللّغوي بعد ذلك . ويتكّشف عن ذات بحدود غامضة سديمية الحدود، وأنا جلدي من طبيعة ضبابية لا تجيد التّمييز فتقع فريسة الالتباس.[40]

✓ **الجلد العضلي الثاني (la seconde peau musculaire):** بني هذا النّوع على ملاحظات المحلّلة النّفسانية الإنجليزية "إيستر بيك" للرّضع؛ وينشأ هذا الجلد الثّاني لتعويض قصور الأنا الجلدي إذا ما فشل في القيام بمهامه الحاوية والواقية، ويصدّ عنه الإثارات، فإذا لم يتمكّن الرّضيع من استدخال موضوع خارجي قادر على احتواء أجزاء الجسد لتأمين وظيفة احتواء أجزاء الذات؛ بسبب تقصير الأمّ أو تضرّر من الهجمات الهوامية المدمّرة للرّضيع، فإنّه يبحث عن رمامة بديلة[41] لمداراة خلل الأنا الجلدي..

✓ **غلاف المعاناة (enveloppe du souffrance):** يبحث الفرد في حالة الألم النّفسية والمعاناة عن قشرة بديلة يتشرنق فيها على ألمه، فيتغلّف بالمعاناة[42] لأنّ الألم لا يقتسم وإنّما يعاش بتفرّد، وإذا كانت اللّذة تجربة فإنّ الألم امتحان ومحنة، تصادر المكان كله وتغمره بالكبد، ولا تبقي من الأنا لأناها شيئا يذكر، وإذا لم يخفّف من الألم أو يتمّ علاجه، فإن بنية الأنا الجلدي توضع، إذذاك،

على المحكّ وتتّسع الشّقة بين وجهيه: الدّاخلي والخارجي.[43]

✓ **قشرة الحلم (la pellicule du rêve):** إن الأحلام أغلفة نفسية تصون الأنا وتحوطه من تهديدات الكبت، وتقيه أخطار هجمات الهو وتمدّد رغباته واكتساحها لمنطقته. إذ يبني الحلم صادّ إثارات يلفّ نفسية النّائم، ويحميه من النّشاط الكامن لبقايا النّهار (من الرّغبات المقموعة...)، ويسمح بإعادة البناء اليوميّ للغلاف النّفسي.[44]

3. الفزيولوجي والرمزي: من الأنا الجلدي إلى الأنا المفكّر:

إنّ تاريخ التّواصل الإنساني وتدليله هو تاريخ يرسم الجلد عتبته، بدء من وضع المولود على بطن أمّه فور خروجه من الرّحم، وتدعيمه، بعدها، "بالتّفاعلات اللّمسية الحسيّة والعضوية الشّمية الّتي تبني المنظومة أم – طفل، وتثبّتها جيدا"[45].

يجبر اللّمس، فيما بعد غزو العلامات الرّمزية، على الانزواء، لكنّ الحقيقة التي تؤكّد على " الأديم الظّاهر مصدرا عصبيّا مشتركا للجلد والدّماغ معا"[46]؛ تحكم على هذا الزّحف الرّمزي بالفشل في كفّ اللّمس عن السّريان الصّامت في شرايين صخب الأدلّة .

❖ **حظر اللّمس و نسق التّرميز:** يمثّل حظر اللّمس (l'interdit du toucher) أحد ضروب الكفّ الّتي تعيد هيكلة الأنا، عقب استقرار الأنا الجلدي بنجاح، وهي تمنح الفرد ورقة الدّخول في المشترك بعد اجتياز العتبة التّواصلية الأولى "**جلدا لجلد**" "peau à peau"[47] المظلّلة بأفياء البداهة والمباشرة، والمشروطة بعالم لا يزال يرفل في الاستمرارية والامتداد ويجهل القطع والتّمسيف؛ "ونظرا لأن أنسقتنا التّصورية تنشأ من أجسادنا، فإنّ المعنى ينشأ في أجسادنا وعبرها"[48]، أين يَشْخَصُ الجلد بوصفه العضو الأوّل للتّبادل الدّال القائم على المصاداة والتّداول اللّمسي، ما يدعو للذّهاب إلى أن الأصل في التّواصل لمسيّ، ويجعل اللّمس أساس الفعل التّواصلي و يقرّ الفكر في أطراف الأصابع. فالجسد "لا يمنح المعنى للعالم الموضوعي فحسب، وإنّما أيضا للمواضيع الثّقافية كالكلمات"[49].

ولكنّ الانخراط في الأنظمة السّيميائية الأكثر تطوّرا لا يتحقّق إلّا بفضل قمع التّواصلات اللّمسية الأوليّة عن طريق ما يدعى نفسيّا بـ "حظر اللّمس". غير أنّه وعوض أن تتحطّم هذه الأوليّة التّواصلية المقموعة، نلفيها تتراجع إلى الخلفية الأساس الّتي تستقبل تسجيلات النظم التّواصلية الأكثر تقدّما.

إن التّواصلات اللّمسية البدئية تؤسّس فضاء نفسيا أوليّا يهيّء للفضاءات الحواسيّة والحركيّة العلوق والتّغلف، وهي توفّر نسيجا هواميّا ينظّم منتجات العمليات اللّاحقة المتّصلة بالفكر[50] وتشكّل قاعدة العبور من الـ"لا أفكّر" إلى " أفكّر" أو من العناصر "بيطا" (bêta) المشوّشة إلى العناصر "ألفا" (alpha) الدّالة-[51] كما يدعوها و.ر. بيون (W.R.Bion)، وبلوغ مرحلة التّرميز من ثمّ.

يتوسّط الجلد فعل التّحادث بين الطّفل وأمّه، وهو يتلقّى منها "الكلمات الأولى" في غمرة اللّمسات الأمومية ودفء حرارتها وأريج رائحتها... إنّه نوع من الانغماس في "حمّام كلاميّ" (bain de paroles) أو صوتي (bain sonore) تغدو، بمقتضاه، المثيرات الأمومية فعل تواصل يهيّئ الطّفل للاندماج في المشترك اللّغوي، والانتظام في نسقية التّشفير السّيميائي. فالتّواصل الأوّل الّذي ينعقد بين الطّفل ومحيطه الأمومي والعائلي هو مرآة لمسيّة وصوتيّة

وحرارية في آن، يكون بمقتضاها هذا التّواصل تصاديا و انسجاما مع ذبذبات الآخر[52].

إن التّواصل في هيئته الأصليّة الأولى على مستوى الواقع- وحتى هواميّا - هو تواصل مباشر جلدا لجلد دون وساطة. وحتّى في حال تعرّضت التّواصلات اللّمسية الأولى للضّمور لاحقا فإنّها لا تتلاشى تماما، إنّها تُقمَع وتُكبَت ولكنّها لا تضمحلّ؛ فلا يني التّواصل الرّمزي والسّيميائي محتفظا بآثار التّواصل اللّمسي الأصليّ.

إنّ حظر اللّمس، وبخلاف القمع الأوديبي، لا يطالب بتنازل نهائي عن موضوع الحبّ والتّعلق، وإنّما يكتفي بإنزال المصاداة اللّمسية (échotactilisme) من المرتبة الأولى للتّواصل مع الآخرين. ولكنّه لا يزحزح اللّمس عن مكانته كمنبع أصليّ للسّيمياء؛ يجد له في مشاعر الحبّ والتّعاطف ومقامات الإبداع... ذريعة للتفجّر وقوّة التّدفق بنشاط.

إنّ حظر اللّمس، إذا لم يقف عند حدود كفّ يسهل رفعه بشكل نسبيّ، وطُبِّق مبكّرا أو بطريقة قمعية شديدة، يكون قابلا لتنشئة كبت خطير إزاء القرب الفيزيائي، ويسهم بشكل ملحوظ في تعقيد الحياة العاطفية، والتّواصل مع الأطفال والقدرة على التّصدّي للعدوان[53].

3. اختراق الجلد؛ نزيف الذّات:

تمثل الذّات "مركز الوحدة النّفسية وتكون منطلقاتها الأولى من الجسد عن طريق اللّيبيدو والنّرجسية لتصل، في النّهاية، إلى تنظيم العلاقات مع الآخرين"[54]. فإذا كان الأنا الجلدي يرسِّم للذّات حدودها النّرجسية، ويحصّنها بأسوار الهوية، ويشكّل حولها قشرة لحائية تقيها شرّ الهجمات الخارجية، وتدرأ عنها الأخطار المحيطة، فإنّ العدوان على الجلد بفعل التّعذيب أو التّشويه أو الاغتصاب يخلّف ندوبا، ويورِّث الذّات شروخا لا ترأب، تضعها تحت طائلة حداد مزمن.

وما دام "الشّعور بالذّات هو شعور بالحدود"[55]؛ فإنّ الانتهاك الّذي يطال الجلد ويخترق حدود الأنا، يضعضع أركان الهويّة ويدكّ حصون الذّات، ويتركها تعاني من نزيف نرجسيّ وليبيديّ لا تكتفي فيه آثار النّدوب بتشويه الواجهة، بل تتغلغل في الذّات؛ مخلّفة ذاتا مغتربة عن نفسها مهجورة "في منفى جذري"[56]. تكون معاناتها من الشعور بغرابة العالم الخارجي ناجمة عن اضطراب السّطح الخارجي للأنا – كما يلاحظ فدارن[57].

4. الجلد بين التّخصيص والشّراكة:

1.5.التّعليم على الجسد بين تأميم الهوية وجرح المعنى:

ظلّت أنماط وسم الجلد، لفترات تاريخية مديدة، حكرا على العبيد والمساجين والأسرى والحيوانات كدليل إدانة أو علامة تبعية ومملوكية؛ وإن بقي للوشم، منها، في بعديه؛ التّجميلي والتّحصيني، حضور خفيّ يسري، بلا ضجيج، في الكيان الشّفهي للثّقافة وفي مناطقها غير الرّسمية، ولو أنه بدأ يتبدّد في العقود الأخيرة بسبب تجاوز أغلب الثّقافات شفاهيتها ودخولها مرحلة الكتابة.

ولكنّ الآونة الأخيرة شهدت عودة كاسحة لثقافة الوشم، وصعوده كمظهر من مظاهر الرّفض والتّمرد، واستشرائه على قاعدة عريضة من الفئات الاجتماعية (الشّابة منها بالخصوص)، وتهافت الموضة على استغلاله وامتطاء صهوته، قد ترافق مع بلوغ الإنسان مرحلة الحيرة والشكّ، وبدا كمظهر من مظاهر الجهل بالذّات والتّطويح بما يلفّها من

معرفة يقينية، وترافق مع تصاعد هاجس استكشاف الذّات [المجهولة] متّخذا له مظاهر شتّى تنوّعت بين اختراق الجلد بالوشم، وثقب الجسد، وإدخال مواد غريبة بالتّالي؛ كالمعدن والكحل والأصباغ .. وغيرها إلى البشرة في احتجاج واضح على البداهة، بخرق المألوف والتّخلي عن صيغة الذّات المتقادمة، وباجتراح الممنوع وإعلان حيازة الذّات عبر امتلاك جلد جديد.

يحمل الوشم - عبر الجهر بالكتابة- مخايل تقويض "ميتافيزيقا الصّوت"، وإلغاء منطق الثبّات والحضور الأصليّ، فـ" الأثر الدّريدي هو دليل لا أصل له، دليل يسكن الفرق الأكثر عنفا، ولهذا فإنّ الوجود الموشوم والمكتوب (l'écrit) يمكنهما أن يتأسّسا داخل هذه الإشكالية" [58]. ويكون توشيم الجلد أو تعريضه للجروح والحروق؛ فيما يدعى بفنون الجسد (body arts)، تمرّدا على الحدود وانتهاكا للأسوار الّتي تحيط بالذّات منذ الولادة، وتمارس عليها الوصاية باسم الصّيانة والاحتواء، إنها إزاحة لشرطية التعلّق الّتي تبقي الذّات في محلّ التّبعية، وإقلاق لسكينة يبعثها حصار الغلاف. وقلقلة لاستقرار الحدود الجسدية والإنسانية. هي خدوش في وجه الإنسانية وواجهتها تخرق المحرّم وتسخر من الصورة الجسدية المنتشية بهوامّ الاكتمال والحصانة.

وبالنّظر إلى ثقافات ظلّت مستمسكة بطبيعتها الشّفهية لوقت طويل- على غرار الثّقافة العربية الإسلامية، مثلا، الّتي منحت الأولوية للرّواية والتّواتر الشّفهي- يكون توشيم الجسد علامة على إدراجه في خانة المكتوب، وزحزحة له عن الدّليل الإلهي المنطوق: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [59] الّذي أوجده. كما يحمل مقاصد المساس بالمقدّس واجتراء على "التّراتب الإلهي للأدلّة" الذي يجعل من الكتابة شأنا متعاليا يرجع إلى قضاء إلهيّ، له وحده أن يخطّ حروف الجسد الإنساني* بكلمة الخلق : "**كُنْ**"، ليكون كما يشاء له الكلام الإلهي أن يكون[60].

إنّ "جسد الحرف في الكتاب هو جسد الإنسان في الكون"[61]، وأيّ تشكيل♣ يطال الوجه والجسد بالتخطيط، يقصى إلى خانة التّحريم في الدّين، لعلّة ما ينطوي عليه من تقليد لفعل الله الخالق[62]. عدا عن ذلك، فإنّه لا يجدر بالجسد الإنساني أن يحمل أوساما أخرى غير تلك التي وسّمه الله بها.

يبحث الفرد أيضا - عبر تعليم بشرته - عن دلائل تنصّل من الجلد المشترك (la peau commune) واكتساب سمة تفرّد وتميّز عن الحشود البشرية[63] يضمن بها الاختلاف، ويَفيء إلى داخله الضائع في الرّحام، ذلك أن " تغيير المرء لجسده من خلال وضع وشم أو ثقب أو حلية، هو لدى البعض شكل من أشكال الاستكشاف الدّاخلي"[64].

ويُتَّخذ، في جانب آخر، مطيّة بحث عن انبعاث جديد؛ تعدّل فيه حدود العلاقة بالعالم عبر تحيين الكتابة الأصلية (l'écriture archaïque) المكبوتة الّتي لا تني تسكننا وتحلّ فينا وتقيم في ثقافاتنا بشكل من الأشكال[65] بسبب المخزون اللّاشعوري الجماعي. إذ لا تزال الأشكال والخطوط الموقّعة بالوشم تستدعي رموزا تؤوب إلى حقب زمنية سحيقة القدم، وغائرة البعد في الذّاكرة الإنسانية♠.

2.5.الوسم الطّقوسي والشّراكة الجلدية:

❖ **.امتدادات الغلاف:** إذا كان الأنا الجلدي يخصّ الفرد ويتأسّس على تجربته الجسدية، فإنّ مفهوم الغلاف النّفسي الّذي يقوم عليه، يقبل التّمدد والتّوسع ليعمّم على فئة أوسع تشمل العائلة والقبيلة والعشيرة والأمّة.. يمثّل الغلاف الجماعي (l'enveloppe groupale) أحد تمظهراتها وهو يلبّي

حاجة التّصدّي لأيّ تهديد يمسّ الهوية الذّاتية، فيكون اللّجوء إلى الاتّصال الجواريّ بين الحدود الجلدية؛ الجلد الخاص والجلد المجاور (جلد أحد الوالدين أو أحد الإخوة المتشاركين في السرير) سبيلا لترميم الهوية[66]، وتعزيز الهيئة الهشّة للغلاف الخاصّ بغلاف جماعي يدعمه.

ينطبق الأمر على الشّعوب والمجتمعات المصنّفة في خانة الهشاشة و"البدائية" التي لا تعترف بالفرد إلّا عضوا مندمجا في الجسد الجماعيّ للجماعة، وتنكر ما يدعى بالحدود الجسدية، وتعتبر أعضاءه، بالتّالي، ملكا جماعيا مشتركا. يفرض هذا الغلاف الجماعي على الغلاف الفردي التّقولب وفق نمط محدّد سلفا. ويمنعه من الانفصال والاستقلال والتّمايز.

ويكون استحقاق نيل هذا الانتماء الجمعي وإعلانه مشروطين بطقوس عبور لا تخلو من توقيع جلدي يصفّي الحساب مع الانتماء القديم ويؤشّر على انتماء جديد، جاعلا من المساواة بين الأفراد مطلبا لبلوغ جسد المجموع. إن العضو المنتسب إلى جسد الجماعة يدوّن عضويته على جسده وسماً مرئيا "يجسّد ذاكرة محسوسة لتغيّر الوضعية الاعتبارية"[67].

تتّخذ سنّة **"الختان"** مثلا في المجتمعات الإسلامية شارة مؤهّلة لانخراط الذّكر في الجماعة المسلمة[68] أو "الأمّة"، وتكون التّضحية بالغرلة معبر الحظوة بهذا الاعتراف، ويعمّم الأمر، في بعضها، على الجنسين؛ مخضعا الفتيات للخفض بذريعة الطّهارة المشترطة في الانضواء تحت الإسلام.

إنّ طقس الانتماء هذا يوقّع بجرح الجلد وإجراء تحوير للجسد يكون فيها الألم جسرا للعبور، تُمْهَر، فيه، الوضعيّة الاعتباريّة الجديدة بالختم الدّموي، ويحدث هذا وسط احتفالات علنيّة ترعاها الجماعة♦؛ كإشارة مباركة ورضا بقبول العضو الجديد في الجماعة.[69]

تقام شعيرة الختان وسط الاحتفالات الصّاخبة، وتعمد بعض المجتمعات إلى التّغطية على صراخ الطفل -أثناء العملية- بالقرقعة والزّغاريد والأهازيج الشّعبية... في تمجيد للآلام التّحويلية الّتي لا مناصّ منها للحصول على شرف الاندماج. دون إغفال ما تستدعيه من الذّاكرة الجمعيّة وتستحضره لمواجهة ما يحفّ أوائل الأمور، وبدايات الأشياء من قلق يستدعي طقوس مرور للتّخفيف من غلوائه[70]، باستجلاب خيره واتّقاء شرّه. وما يشيع من حفلات الختان الجماعي، واصطفاء المناسبات الدّينية ميقاتا لإجرائها، إلّا نوع من تكريس غلاف الجماعة، وتغذية هويّة الأمّة والتحصّن بالوجاء الدّيني في مجابهة الخوف والقلق.

وعلى صعيد مماثل، يقام طقس عبور لا يقلّ عن جرح الختان دلالة، وهو عادة **"فضّ غشاء البكارة"** ليلة الزّفاف، الّتي تقام هي الأخرى في أجواء احتفالية صاخبة، وبرعاية اجتماعية مثلى، تسودها المشهديّة والفرجة ويتخلّلها الاستعراض كما يليق بطقس عبور. يكون فيها الغشاء الجلديّ للعروس- الذي لطالما اعتبر ملكا للجماعة وعدّ المساس به عدوانا على الجسد الجماعي- على موعد مع اختراق مبارك، وجرح شعائري تزكّيه الجماعة في طقس احتفالي يخصّص لذلك، ويعلن، بموجبه، الوضع الاعتباريّ الجديد للفتاة.

فلا يغادر المدعوون حتى يستوثقوا من الأمر ويتبيّنونه؛ برؤية قميص العروس مضرّجا، تتلقّفه الأيدي وسط عاصفة من الزغاريد والرّقص المحموم. إن الشّارة الجسديّة المختومة ألما ونزفا، ورقة الفتاة الوحيدة لتنال شرف العضوية باستحقاق مرفوق بالاحتفاء العام . " فلا تعود

البكارة غشاء يخصّ كلّ امرأة على حدة، بل هي غشاوة على أعين الجميع رجالا ونساء"[71] توضع تحت أجهزة رقابة صارمة وتنصّب، حوله، دروع واقيّة من شتّى الأنواع تصل إلى حدود السّحر والشعوذة مع "التصفيح". وتكون المرأة باجتيازها النّاجح لهذا الاختبار، وتقديمها للبيّنة الدّموية على عذريتها قد وفّت بميثاق المجموع، وصانت جلد الجماعة. وحفظت للغلاف خاصيّة الانتماء (appartenance).

أما في حال فقدان الغشاء خارج الشّعائر الطقسية، لأي سبب من الأسباب، فإنّها تكون قد خرقت جلد الجماعة وأحدثت فيه ثقوبا تهدّد وحدته وميزته الواقية، تُفصل،جرّاءه، الفتاة عن جسد المجموع بالطّرد والإقصاء والتّهميش الاجتماعي، وبالقتل في الكثير من الأحيان، وتفقد فرصتها في التحصّل على موضع أو مكان داخل الجلد الجماعي.

إن الألم والنّزف الدّموي في طقسي الختان وافتضاض العذرية يرتبطان، على نحو ما، بتصوّر القتل والبعث من جديد، يموت عقبه الفرد القديم في وضعيته الغُفْل، ومن جلده المتداعي يقوم العضو الجديد موسّما بدمغة الجماعة المضرّجة.

5. الثّياب وترميم الغلاف النّفسي:

صار اللّباس للإنسان غلافا ثانيا مذ تجاوز به عتبة الضّرورة، وغدا لازمة ثابتة للجسد ترافقه من الميلاد إلى الوفاة، ولا تفارقه حتى في رحلته إلى قبره. وهو غلاف نسيجي بوجهين؛ أحدهما خارجي والآخر داخلي؛ " فهو يحمي الفضاء الحميمي كما ينفتح على الفضاء الاجتماعي والعلائقي، إنّه بمثابة غطاء يمثّل الحدّ الفاصل بين الشّخص والعالم"[72]. وقد خوّل له اندماجُه في الصورة الجسدية للفرد، الامتلاءَ بالليبيدو والنّرجسية التي يوفرها الأنا الجلدي.

وقف التّحليل النفسي مليّا عند اللّباس وتناوله وفق مبدأ الرّابط والإجراء التّذاوتي من الناحية اللّاواعية والهواميّة ؛ فهو من لواحق الجسد ومن لوازم التّعلق الّتي يبوء الجلد بها، وهو أيضا قشرة تسهم في الاستثمار العاطفي لعالم الطّفل وتشكّل أولى روابط التّعلق لديه، فالاستخدام النّفسي للألبسة يتدعّم بالتّجربة المبكّرة لجسد الأم المعيشة بخصائصها كسطح حواسيّ حاو.

تعطي طريقة تقميط الطّفل دورا مهمّا للملبس في عقد الروابط الأولى؛ فالوشائج العاطفية التي تحاك من خلال أسلوب إلباس الطّفل ولمسات الأم على أقمشة الأردية الطّفولية تبقى حيّة على الدّوام، وتَعْلَق بتمثّلات الشّخص لثيابه طيلة حياته. وترتهن طريقة استثمار الطّفل لغلافه النّسيجي بطريقة استثمار الأمّ لهذا الموضوع، وما تُبَطِّن به فعلها التّواصلي هذا من قيم عاطفية انشراحية أو انقباضية؛ تنسج جسدا مشتركا من الانفعالات والأحاسيس أثناء الإلباس؛ ما يمنح الفعل أثرا مهدّئا على الطّفل– كما تلاحظ إيستر بيك-[73]

صار الإنسان- لكثرة الملازمة وشدّتها- يُسقط على اللّباس ما يسقطه على غلافه الجلديّ من تصوّرات وهوامّات نفسيّة. فيضاعف اللّباس الأنا الجلديّ ويدعمه بقشرة أو قشور تدرأ عنه قابلية الاختراق وتقوّي حدوده، وكثيرا ما يقترن الشّغف بالملابس بحالة هشاشة الغلاف النّفسي ونفوذيته المفرطة، ما يجعل منه ضربا من "جلد عضلي ثان يأتي ليعوّض عجزا خطيرا في الأنا الجلدي، ويسدّ ثغرة النّقائص والتّشققات وثقوب الجلد العضلي الأوّل"[74]؛ ولعلّ اهتمام بعض النساء المفرط بقشرتهنّ الخارجية؛ من لباس وماكياج، أن يكون نوعا من التّعويض ومحاولة تقويّة الحدود وتصليب غلافها النّفسي[75]. فالثّياب

تقدّم وهما بصريّا أساسيّا للأنا في علاقته بالآخر. وتشفّ عن طبيعة الغلاف النّفسي والخيال الرّمزي.

عادة ما يكون اللّباس محلّ إسقاط نرجسيّ للوالدين، وتقوم النّظرات الأمومية وعيون المحيط بإنشاء غلاف بصريّ يزوّد الأنا ببعد منظور يعطي الامتياز للنّظرة وللمرآة، ويسمح للطّفل بإنشاء نرجسيتّه الخاصّة بفضل صورته المنعكسة على وجه أمّه؛ لتكون للطّفل أوّل مرآة يصنع بها تمثّلاته المبكّرة عن ذاته، تتمدّد بعدها لتشمل كلّ ما يراه منعكسا على وجوه الآخرين – كما لاحظ وينكوت-[76]

توضع هذه النّرجسية [العائلية] على المحكّ في فترة المراهقة؛ عندما يغدو الإغواء من أولى انشغالات المراهق، وتمسّ خيارات الملبوس لديه بالوالدين؛ متمرّدةً على رغباتهما الخاصّة، فتكون الثّياب ذريعته للإفلات والتّحرّر من والديه[77].كما قد تكون تعلّة جيل كامل أو فئة اجتماعية معيّنة لممارسة الثّورة الاجتماعية وإضرام نيران الاحتجاج.

وفي حالات عديدة يُتّخَذ اللّباس قناعا لتغطية الصّدمات والأعطاب العائلية، بالتّنصل من جلد العائلة (أو المعارف بشكل عام)، وتغيير طريقة اللّباس والزّينة باستمرار قصد تضليل المعارف، مع تبطين رغبة شديدة في التّنكر والتّخفي من عيون الآخرين. وحجب اختلالات الأنا الجلدي، إذ تسري عدوى قابلية اللّباس للتّبديل على الغلاف النّفسي فتمنح لصاحبها الانطباع بتجدّد الأنا وقابليتها الدّائمة للتّرميم، وهي حالات تعثر عادة في عارضي الأزياء (من الجنسين) على أنموذجها المشتهى، وتتقلّص، فيها الأجساد، فتتحوّل إلى مجرّد دمى أو مواضيع[78].

تقوم الثّياب بالأدوار الأساسيّة للغلاف الجلدي؛ فهي غلاف حراريّ؛ يعدّل حرارة الجسم ويضبطها على المعدّل المطلوب دفئا وبرودة، وهي غلاف يلفّ الجسم ويحميه ويصدّ عنه المؤثّرات الخارجية، كما أنها تؤدّي عمل الوعاء الحاوي الحميمي الذي يحتاجه الإنسان طيلة حياته.

تضع الملابس الحدود بين الأجساد وتفصل فيما بينها؛ مقتطعة لكل فرد تخومه الخاصّة؛ فيما يصهر العري الأجساد في بوتقة واحدة، ويزيل حواجز الفصل فيما بينها، ويدمجها في وحدة صمّاء؛ في هيولى تنقلها مثلا؛ مشاهد تداخل عري الأجساد وسط الماء والبخار في الحمامات التركية ...

تمثّل الملابس وعاء للروائح وغلافا شميّا يمارس الجذب والنّبذ، ويتمتّع بقدرة كبيرة على الإثارة، إنها غلاف أيروسي لا يقاوم ، وهي أيضا خزّان للبصمات الشمية الخاصّة، ويكون شمّ الملابس ناقلا للمتعة واللذة بما يكفله من إحساس بحضور الآخر. وكثيرا ما تندمج تجربة متعة اللّمس الناجمة عن مداعبة الملابس بمخيال أجساد متحابة تتداعب.

والثّياب سجلّ يدوّن التّاريخ الشّخصي ويحفظ التّجارب الخاصّة ، تحوك ألياف نسيجها آثار الذكريات وتكنّها كموطن حقيقيّ، إنّها مسارد لحياتنا، وتاريخ منقوش على الأديم القماشيّ المتقادم، تبدو هذه الذاكرة المغزولة ضرورة لا غنى عنها بالنّسبة للفرد خصوصا عندما يواجه مشاكل التّذكر، أو عندما يضعه التّقدم في السّن وجها لوجه مع ذكريات يستحيل تكرارها، وتستعيد مشاعر وانفعالات فقدت إلى الأبد؛ كسترة حاكتها أم توفيت ، أو فستان مهدى من زوج مفقود ...

تأخذ بعض الثّياب من أصحابها موضع الذّات؛ مثل البذلات الرّياضية بالنّسبة للرياضيين، أو الزيّ العسكري، أو أزياء الرّقص ...وغيرها من الحلل الخاصّة بالمهن و الشّغف، فيصير التّخلي عنها أو تغيير الزيّ شبيها بالتّخلي عن الذّات أو فقدان بعضها، إنّه جزء من حياة الفرد، يصير مع التّقدم في العمر، شارة وأثرا أساسيا لحياته الماضية لا يمكن تحصيله ثانية، ينذر ببداية الانفصال عمّا هو عزيز عليه، ويحمل مؤشّرات افتراقات أخرى يأتي على رأسها فراق الأحبّة.. وفراق الحياة.

تحمل الثيّاب أيضا بصمات حياتنا وتشاركها مع الآخرين وفق مبدأ الحياة الاجتماعية، إنها تشدّ الفرد إلى الجماعة وتوثّق صلته بها. فيستثمر كلّ مجتمع مساحة اللّباس المرئية لينقش على نسيجها أعرافه وتقاليده، ويطبعها بميزاته الثّقافية الّتي تمنحها طابع الهوية وتسبل عليها خواصّ الانتماء، ويغدو بموجبها الفرد منتميا إلى جماعته ومندمجا فيها؛ لا بسماته الجلدية وأوسامها عليه فحسب، وإنما أيضا بقشرة ثيّابه ولواحقها.

خاتمة:

ذهب إدموند جابيس إلى أنّ البداهة تؤوي الفراغ[79]؛ فما يجلو أمام العين مرأى خدعة الوضوح وعفويته، يكون "غالبا الطريق الأقصر إلى السرّ"[80]، إنها البداهة ذاتها الكامنة في ألفة الجلد وانكشافه المخاتل؛ فعلى سطح الجلد ترتسم أعمق التّمثّلات غورا، ومن مساماته المحسوسة ينفذ أبعد الهوامات إيغالا في التجريد، يخفي وراء صمته ضجيج المعنى وصخبه ويواري خلف نسيجه البادي غموض العوالم الدّاخلية وضبابيتها.

إنه حافة للتّناقض والتّعارض؛ يصل ويفصل، يدمج ويقصي في آن، يمثّل عتبة الاحتواء والانضواء وحاشية للتمرّد وتفجير الحدود أيضا. إنّه موئل سكينة الطّفل واستقرار نفسيته، ومحطّ عنف المراهق وسخطه، ومكمن احتجاج الغاضب وثورته، منه تنطلق الخبرات والتّجارب وتستثمر، وفيه تنكمش الذات على معاناتها وتتقوقع. على صفحته تبزغ الحياة وتزدهر وعنه تصدر نذر الموت والدّمار وتنتشر، إنّه أرجوحة للوجود المشتبك ووتر نشاز للعزف المشترك.

الهوامش والإحالات:

[1] D.Anzieu, Le Moi peau, DUNOD, Paris , 1995, p.61.

2. سيغموند فرويد (1982)، الأنا والهو، ت. نجاتي. محمد عثمان ، دار الشروق، ط.04، بيروت- القاهرة، ص257.

3. للمزيد من التفاصيل ينظر: سيغموند فرويد.: ما فوق مبدأ اللذة، ت. رمزي . إسحاق ، دار المعارف، ط.05، ، مصر، د.ت، ص ص.54- 55 وص.58.

4. D. Anzieu, op cit, p.73

5D. Anzieu, corps de l'œuvre , Gallimard, 1981, p.72

6. Ibid, p.72

7 . D .Anzieu, Le Moi peau , , DUNOD, Paris , 1995, p.35.

8فيليب سيرج(1992)، الرموز في الفن- الأديان- الحياة، ت. عباس. عبد الهادي، ، دار دمشق، ط.01، سورية، ص.253.

9 . Anzieu. D, Le Moi peau, p..39

10. Ibid., p.125

11 . Ibid, p.61.

12. Ibid. , p.39

13 . Ibid. pp. 189-190.

14.Ibid, p.104.

15 .Ibid, pp.121-122.

16 Thierry Berquière ; Les textures affectives de l'habillement, Influxus, [En ligne], mis en ligne le 15 octobre 2015. URL :

- http://www.influxus.eu/article1015.html Consulté le 22 novembre 2020.

17 Anzieu. D, Le Moi peau, p.183

18 .Ibid, pp.124-125.

19. ينظر؛ فرويد. سيغموند(2000)،الموجز في التحليل النفسي، ت. محمود علي. سامي – القفاش. عبد السلام، مهرجان القراءة للجميع، ص26.

20 . Anzieu. D, Le Moi peau, pp.125-126.

21. Ibid,p.126.

22. عز العرب لحكيم البناني: الجسم والجسد والهوية الذاتية، مجلة عالم الفكر، الكويت ،العدد. 04، المجلد 37 ، ، أبريل- يونيو، 2009 ، ص.113.

23 Anzieu. D, Le Moi peau,p.127.

24 . J Derrida ; Le toucher, Jean - Luc- Nancy, Galilée, Paris, 2000, p.16

25. أرسطو(2015)، كتاب النفس، ت. أحمد فؤاد الأهواني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط.02، 2015، ص.52

26.ينظر؛ سيغموند فرويد: الموجز في التحليل النفسي، ص.33.

27.Anzieu. D, Le Moi peau, pp.127-128..

28. Ibid, p.128.

29 Ahnouche. fatima ; Abdelkébir khatibi ; la langue, la mémoire et le corps, l'articulation de l'imaginaire culturel, l'harmattan, paris, 2004,p.215.

30 . Anzieu. D, Le Moi peau,p.128.

31. هي حال كتاب موجود في جامعة هارفارد الأمريكية ، كشفت الجامعة عام 2014 أنه يعود لكاتب فرنسي يدعى "أرسين أوساي" (Arsène Houssaye) بعنوان " Destinées de l'âme" يعود إلى نهايات القرن 19م ، وغلّف الكتاب بجلد مأخوذ من ظهر امرأة توفيت جراء أزمات نفسية.

المعلومات استقيت من مقال منشور بالمجلة الإلكترونية الفرنسية Slate fr بعنوان:

- Oui ce livre est bien relié avec de la peau humaine. Mais pourquoi? , Repéré par : Etienne Goetz- 06 juin 2014 à 15 h 42 -

على الرابط التالي:

http://www.slate.fr/story/88149/livre-peau-humaine

32 D. Anzieu, Le Moi peau p.125.

33. ينظر:

D Anzieu, Le Moi peau, pp.121-129.

34.ينظر: أبو الفرج الأصفهاني(2004) الأغاني، ت.إحسان عباس - السعافين. إبراهيم- عباس. بكر، دار صادر، ط02،بيروت، المجلد التاسع، ص.74.

35. سيغموند فرويد: الموجز في التحليل النفسي، ص30

36. سيغموند فرويد: الأنا والهو، ص.67.

37. Anzieu. D, Le Moi peau, p.183

38. Ibid, p.200

39 .Ibid, p.206.

40 . Ibid, pp.213-217.

41. Ibid, pp.219-220

42 . .Ibid, p.125.

43 . Ibid, pp.127-128.

44 . Ibid, pp.237-238.

45. رقية نجادي: الأغلفة النفسية للنساء عميلات الجراحة التجميلية – دراسة حالات - مخطوط رسالة دكتوراه في علم النفس العيادي، جامعة وهران ، الجزائر، السنة الجامعية: 2018-2019، ص.27.

46 .Anzieu. D, Le Moi peau, p.83.

47 . Ibid, p.177

48. ج. لاكوف. -م جونسون(2016)، الفلسفة في الجسد: الذهن المتجسد وتحديه للفكر الغربي، ت. عبد المجيد جحفة ، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط.01، بيروت، ص.41

49 M.. Merleau-Ponty, phénoménologie de la perception, Paris, Gallimard, 1945, p.272.

50 D. Anzieu, Op cit, p.125.

51 ينظر:

- D .Anzieu, Le Moi peau, p.183.

52. Ibid,, p.73

53 . Ibid, p.178.

54. نعيمة باجي: الصورة الجسدية لدى القاصر كلويا الخاضع لتصفية الدم ، المجلة الجزائرية للطفولة والتربية، الجزائر، . العدد04، المجلد .04 ،جوان،2016، ص. 68.

55. جورج. باطاي(2017)، الأيروسية (تأمّلات في الشّبق والموت وفي جدلية العقل والإسراف)، ت. محمد عادل مطيمط، دار التنوير،ط.01 بيروت، ص.114.

56. ينظر: دافيد لوبروطون: تجربة الألم، ص.119.

57 .P.Federn, La psychologie du moi et les psychoses, paris, PUF, 1979,p.49

-عن: رقية نجادي: الأغلفة النفسية للنساء عميلات الجراحة التجميلية، ص.23

58. عبد الكبير الخطيبي(2009)، الاسم العربي الجريح، منشورات الجمل، ت. محمد بنيس، د.ط، بيروت، ص.57.

59. سورة يس، الآية رقم: 82

*الحرف هنا بمعنى الجانب والحدّ كأن نقول: حروف الوجه؛ أي جوانبه المشكّلة لملامحه والحرف بمعنى غرافيم اللغة (graphème).

60. عبد الكبير الخطيبي: الاسم العربي الجريح ، ص. 59

61. إدموند جابيس(2015)، كتاب الهوامش، ت .رجاء الطالبي، منشورات ضفاف والاختلاف ودار الأمان،ط01، الجزائر- بيروت- الرباط، ص.71

♣ تستعمل بعض الأوشام في المغرب العربي أبجدية التيفيناغ المشتقة من الكتابة الليبية القديمة .

62 . fatima Ahnouche, Abdelkébir khatibi ; la langue, la mémoire et le corps, l'articulation de l'imaginaire culturelle, p.226.

63. دافيد لوبرطون (2017)، تجربة الألم؛ بين التحطيم والانبعاث، ت. الزاهي . فريد، دار توبقال للنشر، ط01،المغرب، ص.143

64. دافيد لوبرطون : تجربة الألم؛ بين التحطيم والانبعاث، ص.143.

65. عبد الكبير الخطيبي: الاسم العربي الجريح، ص.59.

♠. من مثل : المثلث، والصليب، والسواستيكا (الصليب الدائر) والهلال على الصليب ،ودائرة الأوربورس...

66 . D .Anzieu, Le Moi peau, p.123.

67. دافيد لوبرطون : تجربة الألم؛ بين التحطيم والانبعاث، ص.158.

68. عبد الوهاب بوحديبة (2001)، الإسلام والجنس، ت. العوري. هالة، رياض الريّس للكتب والنشر، ط02، بيروت،ص.249.

♦. تدوم في بعضها لأسبوع كامل

69. ينظر؛ نفسه، ص.257.

70. سيغموند فرويد (1983)، الطوطم الطابو؛ بعض المطابقات في نفسية المتوحشين والعصابيين، ت.ياسين بوعلي، دار الحوار، ط01،اللاذقية، ص.167.

71. مجموعة من الباحثين والكتّاب(2008) : تابو البكارة، دار بترا للنشر والتوزيع- رابطة العقلانيين العرب،ط01، دمشق، ص.78.

72. C Joubert.et S. Stern. « Déshabillez –moi psychanalyse des comportements vestimentaires» , paris, France , hachette littératures 2005, p.08

عن؛ رقية نجادي: الأغلفة النفسية للنساء عميلات الجراحة التجميلية، ص.156.

73 .Thierry Berquière ; Les textures affectives de l'habillement, Influxus, [En ligne], mis en ligne le 15 octobre 2015. URL : http://www.influxus.eu/article1015.html - Consulté le 22 novembre 2020.

74.D. Anzieu, Le Moi peau, p.221.

75. نجادي. رقية : الأغلفة النفسية للنساء عميلات الجراحة التجميلية، ص.156.

76.D .Anzieu. D, Le Moi peau, p.184

77 . **Thierry Berquière** ; Les textures affectives de l'habillement.

78 .Ibid.

79. إدموند جابيس: كتاب الهوامش، ص.35.

80. دافيد لوبروطون(1993)، أنثروبولوجيا الجسد والحداثة، ت. محمد عرب صاصيلا، ط.1 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط01،بيروت،ص.06.

قائمة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

- **العربية**

- أبو الفرج الأصفهاني(2004) الأغاني، ت.إحسان عباس - السعافين. إبراهيم- عباس. بكر، دار صادر، ط02،بيروت.

- مجموعة من الباحثين والكتّاب (2008) : تابو البكارة، دار بترا للنشر والتوزيع- رابطة العقلانيين العرب،ط01، دمشق،

- **المترجمة :**

-أرسطو(2015)، كتاب النفس، ت. أحمد فؤاد الأهواني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط.02.

-إدموند جابيس(2015)، كتاب الهوامش، ت. رجاء الطالبي، منشورات ضفاف والاختلاف ودار الأمان، ط01، الجزائر- بيروت- الرباط.

- جورج. باطاي(2017)، الأيروسية (تأمّلات في الشّبق والموت وفي جدلية العقل والإسراف)، ت. محمد عادل مطيمط، دار التنوير،ط.01 بيروت.

-دافيد لوبروطون(1993)، أنثروبولوجيا الجسد والحداثة، ت. محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط01، بيروت.

- دافيد لوبرطون (2017)، تجربة الألم؛ بين التحطيم والانبعاث،ت. الزاهي . فريد، دار توبقال للنشر، ط01،المغرب.

-ج. لاكوف. -م جونسون (2016)، الفلسفة في الجسد: الذهن المتجسد وتحديه للفكر الغربي، ت. عبد المجيد جحفة ، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط.01، بيروت.

-سيغموند فرويد (1982)، الأنا والهو، ت. نجاتي. محمد عثمان ، دار الشروق، ط.04، بيروت- القاهرة.

- سيغموند فرويد (1983)، الطوطم الطابو؛ بعض المطابقات في نفسية المتوحشين والعصابيين، ت.ياسين بوعلي، دار الحوار، ط01، اللاذقية.

- سيغموند فرويد (2000)،الموجز في التحليل النفسي، ت. محمود علي. سامي – القفاش. عبد السلام، مهرجان القراءة للجميع

- سيغموند فرويد (د.ت) ما فوق مبدأ اللذة، ت.إسحاق رمزي، ط.05، دار المعارف، مصر،

-فيليب سيرج(1992)، الرموز في الفن- الأديان- الحياة، ت. عباس. عبد الهادي، ، دار دمشق، ط.01، سورية.

-عبد الكبير الخطيبي (2009)، الاسم العربي الجريح، منشورات الجمل، ت. محمد بنيس، د.ط، بيروت،

-عبد الوهاب بوحديبة (2001)، الإسلام والجنس، ت. العوري. هالة، رياض الريّس للكتب والنشر، ط02، بيروت.

- **الفرنسية:**

-.D .Anzieu , corps de l'œuvre , Gallimard, 1981.

-.D Anzieu, Le Moi peau, DUNOD, Paris , 1995.

. J –Derrida, Le toucher, Jean- Luc- Nancy, Galilée, Paris, 2000

- fatima Ahnouche , Abdelkébir khatibi ; la langue, la mémoire et le corps, l'articulation de l'imaginaire culturel, l'harmattan, paris, 2004.

-M.Merleau-Ponty, phénoménologie de la perception, Paris, Gallimard, 1945

- **المجلات**

-عز العرب لحكيم البناني: الجسم والجسد والهوية الذاتية، مجلة عالم الفكر، الكويت، العدد. 04، المجلد 37 ،أبريل- يونيو، 2009

-نعيمة باجي: الصورة الجسدية لدى القاصر كلويا الخاضع لتصفية الدم، المجلة الجزائرية للطفولة والتربية،الجزائر ، العدد. 04، المجلد .04،جوان .2016.

-Thierry Berquière ; Les textures affectives de l'habillement, Influxus, [En ligne], mis en ligne le 15 octobre 2015. URL : http://www.influxus.eu/article1015.html .

- الأطروحات الجامعية:

- رقية نجادي : الأغلفة النفسية للنساء عميلات الجراحة التجميلية – دراسة حالات- مخطوط رسالة دكتوراه في علم النفس العيادي، جامعة وهران ، الجزائر، السنة الجامعية: 2018-2019.